والعقل يبكي والطبيعة ثاكلٌ والدهر يضحك والردى تمّاتُ
سبحان من تحت الغرائم مضجعًا فيهِ لكلّ شريفة آياتُ

دمشق في ١ ابريل سنة ١٩٠٥ "سليم عنحوري"

فرسان مار يوحنا

من مقالة للدكتور يوحنا ورتبات نشرت في مجلة "الكلام الصالح" الانكليزية

ذات يوم من ايام سنة ١٨٧٧ قدم المستشفى البروسياني في بيروت الذي انشأهُ فرسان مار يوحنا رجل يبلغ الستين من العمر حسن الطلعة رث اللباس مصاب بالكتركتا في عينيهِ فطلب ان يقبل في المستشفى صدقةً لوجه الله فقبل فيهِ . ولما سئل عن اسمهِ قال انهُ الامير زكريا الايوبي . فعرتني الدهشة لما سمعت اسمهُ وعلمت انهُ امير من العائلة الايوبية وسليل السلطان صلاح الدين الايوبي المشهور وقد حملهُ مرض عينيهِ على الالتجاء الى اقوام دينهم وبين اسلافهِ وقائع مشهورة . وعاد بي الخيال الى زمن زعموا فيهِ ان صلاح الدين جاء القدس متنكرًا بزي شحاذٍ ليرى بالخبر ما سمعهُ بالخبر عن مبرات فرسان مار يوحنا واحسانهم

اما تاريخ اولئك الفرسان فيبتدئ سنة ١٠٢٣ مسيحية اي قبل الحرب الصليبية الاولى بنحو ٧٠ سنة وذلك ان جماعة من التجار المسيحيين من مملكة نابلي استأذنوا صاحب مصر في اقامة ملجإٍ للحجاج الفقراء والمرضى في القدس فأذن لهم في ذلك فبنوا ملجأين قريبين من بيت المقدس احدهما للرجال والآخر للنساء وسمّوا الاول باسم مار يوحنا والثاني باسم مريم المجدلية وانتشر ذكرهما في جميع اوربا فتطوّع للخدمة فيهما كثير من الاشراف رجالاً ونساء ووقفوا العمر عليهما . وبنيت لهما فروع في بعض الثغور الاوربية

وسنة ١٠٩٩ وقعت القدس في ايدي الصليبيين . وكان اول ما فعلهُ جودفري دي بويلون قائد جنودهم بعد ذلك الانتصار انهُ عاد الجرحى الذين أُخذوا الى ملجإٍ مار يوحنا فأثّر في نفسهِ ما رآهُ من حسن معاملتهم وإنكار الممرضين لانفسهم فوقف على الملجإ اراضي واسعة وحذا حذوهُ كثيرون من اتباعهِ الاشراف والاعيان

وكان رئيس الملجإ رجل اسمهُ جيرار فلما توفي خلفهُ رايمون دبيوي فغير في قانون اصحابهِ وزاد على واجباتهم الاصلية فسمّاهم جنود الصليب ثم سموا فرسان مار يوحنا الاورشليمي وثبّتوا بمنشورات بابوية . ونذروا على انفسهم الفقر والعفة والطاعة واتخذوا شعارًا لهم رداء اسود على

الكتف اليسرى منهُ صليب ابيض . وقُسموا ثلاثة اقسام وهي الفرسان والقسس والاخوة المرضون وعليهم رئيس اعظم ثم عينت درجات متفاوتة للضباط والموظفين . وكان الفرسان ينتخبون دائمًا من الاعيان ووظيفتهم الخصوصية حربية وكان اعظم جرم يرتكبهُ الفارس اظهار الجبانة في لقاء الاعداء وعقابهُ نزع الحلة عنهُ وطردهُ من مصاف الفرسان

وحاصر التركمان مدينة انطاكية فاشترك هؤلاء الفرسان في الدفاع عنها وكانت لهم اليد الطولى في صدّ المحاصرين عن اسوارها . وما زالوا منذ ذلك الحين في مقدمة الجيوش الصليبية عند نشوب والحروب بينها وبين العرب فطبق صيتهم الآفاق ونظمت القصائد والاغاني في مدحهم واطراء اعمالهم وكانت تتلى في قصور اشراف اوربا على مسمع من ابناء الاشراف والاعيان فتدبُّ الحمية في صدورهم ويدخلون في مصاف الفرسان افواجًا . وانهالت الاموال على خزائنهم وأُنشئت طريقة اخرى على مثالهم سنة ١١٢٨ سميت طريقة الفرسان الهيكليين وكان شعارهم رداء ابيض عليهِ صليب احمر . فتناظرت الطريقتان في بادىء الامر تناظرًا حبيًّا . ثم تبدّل ذلك التناظر الحبي حسدًا يتلهب في صدور الرجال ويحول دون فوزهم في ميادين النزال . واتُّهم الهيكليون بالهرطقة فاضطهدهم رجال الدين والغوا طريقتهم سنة ١٣١٤ فورث فرسان مار يوحنا كثيرًا من املاكهم

وكانت نتيجة الحرب الصليبية الاولى ان امتلك الافرنج جميع البلاد بين انطاكية شمالاً وغزة جنوبًا وفي جملتها طرابلس وبيروت وصيداء وصور وعكاء ويافا وعسقلان اي فينيقية القديمة والارض المقدسة وبعض القلاع والحصون شرقيّ الاردنّ . وكان يحيط بتلك المملكة المسيحية اعداء الداء اقربهم اليها واشدُّهم عداءً لها صاحب مصر والملك نور الدين السلجوقي صاحب دمشق الشام . وتعددت الوقائع بينهما وبينها حتى كاد اهلها يفنون فاستنصرت ممالك اوربا فأرسلت لنصرتها حملة جديدة يقال ان عدد رجالها بلغ ٧٠ الف فارس ونحو نصف مليون راجل ولكن لم يبلغ الارض المقدسة منهم سوى جيش قليل لان معظمهم مات بين القسطنطينية وسورية تعبًا وجوعًا وقتلاً بايدي الاتراك الذين كانوا ينزلون عليهم من جبال اسيا الصغرى ويقاتلونهم . وبلغ الباقون القدس سنة ١١٤٩ فأعانوا المسيحيين الذين فيها على صدّ غارات اعدائهم

وفي تلك الاثناء ظهر صلاح الدين وهو من اصل كردي وابوهُ واسمهُ ايوب من بلاد فارس خرج منها الى بغداد فرأى فيهِ مجاهد الدين بن عبد الله الفياني عقلاً ورأيًا فجعلهُ حافظًا لقلعة تكريت على دجلة سنة ١١٣٧ ثم جعل حافظًا لقلعة بعلبك وولد صلاح الدين

ليلة خروج ابيه من تكريت . وربي عند عمه شيركوه وتعلم منهُ فنون الحرب . ولما بلغ التاسعة والعشرين من سنهِ حاصر الافرنج الاسكندرية فردَّهم عنها خائبين وطردهم من مصر كلها . ثم مات عمهُ فتولى قيادة الجيش مكانهُ وسمي اميرًا . ولم يكن الاَّ القليل حتى مات الخليفة في مصر وابنهُ خلفهُ صلاح الدين وسمى نفسهُ سلطانًا . فاستتبَّ لهُ الامر فيها ولكن دمشق وحلب والموصل وما يتبعها كانت لا تزال تحت حكم اعقاب الامير الذي نشأ صلاح الدين في جيشهِ . وكان الصليبيون لا يزالون في البلاد التي حكمها المسلمون نحو اربعة قرون . فخطر لصلاح الدين ان السبيل الوحيد الى قهرهم واسترجاع بيت المقدس منهم ان يستولي على العراق وسورية كليهما ويصبح وليَّ الامر والنهي فيهما . فأخذ دمشق فحمص فحماة فالموصل ودانت لهُ البلاد كلها من بغداد الى مصر

وزحف للقاء الافرنج فجرت بينهُ وبينهم المعركة الاولى سنة ١١٧٨ بين عسقلان والرملة فكُسر شرَّ كسرة وكتب الى اخيهِ يقول " لقد اشرفنا على الهلاك غير مرة وما انجانا الله سبحانهُ منهُ الاَّ لامر يريدهُ " وبعد تسع سنوات جرت معركة حطين المشهورة قرب طبرية فدارت الدائرة فيها على الافرنج . ولم ينجُ منهم سوى الف نفس وامر صلاح الدين فجيء اليهِ بالفرسان الذين لم يقتلوا في المعركة فعرض عليهم الاسلام فأبوا فقتلهم كلهم . قال احد مؤرخي العرب في وصف الواقعة " فكان من يرى القتلى لا يظن انهم أسروا واحدًا ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احدًا "

وتلا ذلك تسليم القدس بعد ما بقيت في ايدي الافرنج ٨٨ سنة فصادر صلاح الدين املاك الفرسان وجعلها وقفًا للمسلمين

واما الحرب الصليبية الثالثة فكانت بقيادة ثلاثة ملوك — الامبراطور فردريك بربروسا الالماني والملك فيليب الفرنسوي والملك رتشرد الاول الانكليزي الملقب بقلب الاسد . اما الامبراطور فردريك فسار في الطريق التي سار رجال الحملة الاولى والثانية فيها فكاد جيشهُ يبيد عن آخرهِ وغرق هو في نهر من انهار اسيا الصغرى . واما فيليب ورتشرد فركبا البحر وسار فيليب توًّا الى فلسطين ولكن رتشرد عرَّج على قبرص لان بعض سفنهِ جنح على سواحلها . فعامل ملك قبرص نوتيتهُ اسوأ معاملة فلما بلغ رتشرد مدينة ماسولا ارادت الجنود القبرسية منعهُ من النزول الى البرّ فوثب من قاربهِ هو وبعض رجالهِ وفتح لنفسهِ طريقًا فقرَّ الجنود هاربين واستولى رتشرد ورجالهُ على المدينة وخلع الملك وعين لها حكامًا من رجالهِ بدلاً منهُ ثم أقلع ليلتحق بالجيوش الصليبية عند عكاه وكان فيها حامية

قوية من المسلمين وكان الافرنج قد حاصروها نحو سنتين بقيادة ملك القدس وملك ليليب وكونارد دي مونسرا واستولوا على سهل عكاء وكان صلاح الدين نازلاً في التلال المجاورة لها بجيش كثيف . فجرت بين الفريقين تسع معارك شديدة لم تنجل عن فوز فريق منهما. فلما وصل رتشرد دبت الحمية في صدور الافرنج فهاجموا المدينة واستولوا عليها وكان رتشرد يقود جنوده وهو مريض

وأقام رتشرد سنة وثلاثة اشهر في فلسطين فذاع صيتهُ فيها وملأت رهبتهُ قلوب اهلها كما ذاع صيت صلاح الدين في اوربا وارتعدت فرائص سكانها من ذكره . ويؤخذ مما رواهُ مؤرخو تلك الايام ان تنافس الملكين وعداءهما انقلبا صداقة واعجاباً فقد زعموا انهُ لما مرض قلب الاسد امام اسوار عكاء أرسل صلاح الدين اليهِ هدية من الثلج والاثمار وغيرها وارسل اليهِ مرة اخرى جوادين من كرائم الخيل . وانهُ كان في النية تزويج اخت رتشرد لاخي صلاح الدين ولكنهم عادوا فعدلوا عن ذلك لان رتشرد اشترط عليهِ ان يتنصر

وفي سنة ١١٩٢ سافر رتشرد من فلسطين ومات صلاح الدين في السنة التالية لها في دمشق الشام وعمرهُ ٥٥ سنة

اما ما جرى لفرسان مار يوحنا فانهم تحملوا من فلسطين الى قبرس واقاموا في مدينة لماسول فعظمت سلطتهم البحرية وامنوا الحجاج على ارواحهم والتجار على بضائعهم ثم استولوا على رودس فبقيت في ايديهم نحو قرنين ولما اخذ الاتراك القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ارسل السلطان عمارة لقلعة ٧٠ الفاً من الجنود لمحاصرة رودس فثبت الفرسان على الحصر شهرين ثم غلبوا الاتراك وردوهم على الاعقاب . واعاد السلطان سليمان الكرة عليهم سنة ١٥٢٢ فجهز اسطولاً يقل مئتي الف جندي وارسلهُ لقتالهم فأقام عليهم خمسة اشهر أبدى الفرسان فيها من الاستبسال والاستقتال ما يفوق الوصف ثم سلموا على ان يسمح لهم بمغادرة الجزيرة سالمين بنفوسهم وبأخذوا معهم كل من يريد مرافقتهم من اهلها . فاقلعوا منها ومعهم اربعة آلاف نفس ونزلوا في مالطة وكان الملك شارل الخامس قد وهبهم اياها اعجاباً ببسالتهم وتعويضاً عما فقدوهُ في حروبهم ولانهُ كان يخشى الاتراك فأراد ان تكون الجزيرة حاجزاً حصيناً بينهم وبينهُ فيما لو شنوا الغارة عليهِ . فجعل الفرسان يحصنونها ويرممون اسطولهم حتى اذا كانت سنة ١٥٦٥ جهز الاتراك حملة عليها من ٤٠ الف مقاتل بقيادة مصطفى باشا . وكان عدد الفرسان ٤٧٤ فارساً معهم ٩٠٠٠ مقاتل . وبعد حصار ثلاثة اشهر لم يبقَ فيها من المقاتلة سوى ٦٠٠ نفس لكن جاءتهم نجدة عشرة آلاف مقاتل بقيادة ٣٠٠ فارس فهزموا الاتراك وردوهم الى سفنهم

وبقي الفرسان في مالطة نحو قرنين ونصف الى حين استيلاء الجمهورية الفرنسوية عليها سنة ١٧٩٨ فطردوا منها ومن ثمَّ ضاع استقلالهم وانحلت عرى طريقتهم وصارت القابهم اسمية . ولهم الآن ضابط شرف يعينهُ البابا لهم

وكان الفرسان يقسمون الى سبعة فروع منهم الفرع الالماني واسمهُ برانديبرج . فلما جاء الاصلاح بات اسمًا بلا مسمًّى . الاَّ ان الملك فردريك وليم الرابع ملك بروسيا اعادهُ وعين اخاهُ البرنس تشارلس استاذًا اعظم لهُ . والاستاذ الحالي البرنس ألبرخت ابن اخي الامبراطور وليم الاول . والفرسان ينتخبون من ابناء الاعيان وكلٌّ منهم يتبرع بنحو ٤٠ جنيهًا كلَّ سنة وينفقون المال الذي يجتمع على اقامة المستشفيات حتى صار منها الآن ٤٠ مستشفى في المانيا تسع ١٧٨٧ مريضًا . ومستشفاهم في بيروت فيهِ ٦٣ سريرًا أُنشئ سنة ١٨٦٠ بعد مذابح دمشق ولبنان المشهورة ولهم مضيف في القدس يأوي اليهِ السياح ويدفعون اجرة معتدلة ويقيم فيهِ الفقراء مجانًا مدة اسبوعين

وبعد موت صلاح الدين قسمت البلاد التي استولى عليها بسيفهِ بين ابنائهِ وغيرهم من ورثائهِ ولكنهم ورثوا بلادهُ ولم يرثوا عقلهُ ورأيهُ فلما طغى سيل المغول سنة ١٢٦٠ غمرهم فامَّحى اثرهم

اما ضيفنا الامير زكريا فانهُ اقام في المستشفى ريثما عاد اليهِ بعض بصرهِ فقفل راجعًا الى موطنهِ . فارسلت الى اعضاء الطريقة في برلين اخبرهم بامرهِ فطلبوا مني ان استقصي عنهُ وعن تاريخ سلالة صلاح الدين ففعلت واتضح لي بالبحث والاستعلام من قائم مقام المقاطعة التي يقطنها الامير زكريا قرب طرابلس الشام انهُ ايوبي وان قسمًا من عائلتهِ كان يمتلك اقطاعات قرب طرابلس في سالف الزمن فلا بدَّ ان يكون الامير زكريا احد اعضائها . ثم ان رجال الحكومة العثمانية والاهالي يعترفون لهُ بلقب الامير ويخاطبونهم بهِ وعدتهم الآن نحو ٣٠٠ نفس يسكنون ثلاث قرى وكلهم فقراء يعيشون من كدِّ ذراعهم وعرق جبينهم مثل سائر الفلاحين ما عدا ثلاثة رجال منهم احدهم مدير مديرية وقد لقيتهُ وحدثتهُ بما كان لجدّهِ صلاح الدين من الحول والطول والعزة الشامخة فلم يحفل بذلك . فسألتهُ ما اذا كانوا يتزوجون من غير عائلتهم فاجاب انهم صاروا يتزاوجون العائلات الاخرى منذ عهد قريب . واخبرني مرًّا انهُ تزوج امرأة مسيحية

هذا ولا يزال فرسان مار يوحنَّا زهرة اوربا ونخبة اشرافها وسلالة السلطان صلاح الدين فقراء مدقعون . وقد علمت عن ثقة ان بعضهم من اللصوص وقطاع الطرق